الادب في البحرين

« في فاتحة القرن الحادي عشر »

[شاعر الخط]

« ابو البحر جعفر بن محمد الخطي العبدي المتوفى سنة ١٠٢٨ هجرية »

(ديوانه) ٠ — مخطوط على ورق صقيل ضارب الى الصفرة بخط النسخ الواضح ، يشتمل على ٢١٦ صفحة ، و يظهر من صفحة عنوانه انه انتقل بالشراء الشرعي الى خمسة رجال ، وأقدم تاريخ عليه سنة ١١٣٤ رقم تحت صيغة هبة الديوان وهي بنصها :

« بعد الحمد والصلوة لاهليهما ، فقد وهبني هذا الديوان الجامع لانواع البلاغة والفصاحة ، الحاوي لمستطرف البراعة والملاحة ، من نتائج أبكار أفكار البحر الزاخر ، والحبر الساحر ، الاديب البارع ، الاريب الساطع ، ابو البحر جعفر بن محمد بن حسن ابن علي الخطي البحراني ؛ تغمده الله بغفرانه ، وأحله دار الكرامة بفضله وسلطانه ، هبةً صحيحةً شرعية ، الشيخ العالم الرباني عمي الشيخ احمد بن جار الله الصّيمري [1] مد ظله السامي وكتب هذه الحروف محمد بن صالح بن جار الله عفي عنهم ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١١٣٤ والحمد لله اولاً وآخراً » ٠

والنسخة الاولى من هذا الديوان كانت قد كتبت برسم السيد الشريف جعفر ابن عبد الجبار بن حسين العلوي الموسوي لما بينه والشاعر المترجم من الالفة والاختصاص ، والمودة والاخلاص كما تدل على ذلك الصفحة ٦٤ من النسخة المهداة الى دار الكتب الظاهرية ، ولعل واضع مقدمة الديوان وناسخه هو صديق ابي البحر الحسن بن محمد الغنوي الهذلي من شعراء القرن الحادي عشر ، وهو الذي تولى في اصبهان إنشاد قصيدة شاعر الخط التي عارض بها رائية البهاء العاملي المشهورة ، وليس في فاتحة الديوان ولا خاتمته ما يدل على اسم الناسخ الاخير ٠

---

(١) من اهل مدينة الجزائر بين البصرة والمنتفق في بطائح الفرات نسبة الى الصيام وهي قبيلة تقطن الجزائر وحيٌّ من أحياء البصرة ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واما المقدمة فأولها : اما بعد حمداً لله الذي جعل الحمد قيداً لاوابد النعم ، وزماماً لشوارد القسم ، ومجناً عن عوارض النقم ، الى ان قال بعد اتمام الحمدلة والصلوة ، معرباً عن رأيه في الشعر مما نصه : فان الشعر مستبق فرسان البراعة ، ومنتضل رماة الاغراض من اولي البلاغة ، بميدان رهانه تركض الخيل العراب ، واياه بنتجع علم الاعراب ، واليه يفزع تأويل السنة والكتاب لم تزل الجاهلية يجيلون فيه أقداح المفاضلة ، و ينثرون[1] من كنانته سهام المناضلة ، وان في تعليقهم السبع حيث تعلق أربابهم ، ونصبهم لها حيث توضع أنصابهم ، واجتماعهم بعكاظ يمرون فيه أخلاف المماراة ، و يبرون له سهام المباراة ، لشاهداً على علوهم فيه معدلا ، وقاضياً بعلوه عندهم مسجلا ، ولما جاء الاسلام لم يستحل دمه ، ولم ينتهك حرمه ، على انه شديد الحرص على نقض مرائرهم المستمرة ، وافر الرغبة في هدم قواعدهم المستقرة ، وناهيك باعداده صلى الله عليه حسان لذلك شاهد صدق انه في الاسلام غير وعر المسالك ، ولا مهجور الجوانب هنالك ، ولقد كان في ايام الدولتين ، وابان الخلافتين ، معروف المراسم ، مشهود المواسم ، يستنزل به جود الجود ، ويستمطر بيمنه في السنة الجمود ، و يسترسب به كل من خفت حصانه ، وتستكف به عادية من ترهب شدته ، الى ان قال : و يناط به على المرعث رعاث الاماني و يهنأ به الحسن بن هاني ، و يوسى به اوس المجيد وتلذ الرغائب ببدالوليد ، ويفتحل به ابوالطيب أطايب المزيد ، ثم طارت بتلك الغضارة عنقاء مغرب ، ورمي بعدهم باللكنة المتلسن المعرب ، وهدأت بعدهم فورة المهدر المشقشق ، وأغار فيلق الزمان على الشاعر المفلق ، وأسلمه الدهر الى قوم لا يعشون الى قبس ساطع ، ولا يعضون على الادب بضرس قاطع ، والممت برحم الادب معهم اجنب ، وذوالفضل مهجور الجوانب متجنب ، والعالم كأنه مطلي به القار اجرب ، حشو أذهانهم السكر ، وملء آذانهم الوقر ، قد أجاءهم سوء بلاء الطبع ورثاثته ، الى تفضيل قدم الزمان على حداثته ، وهل يدخل في حيز الامور الممكنة ، ان تتفاضل الرجال بالازمنة ، وهل يعلو السهى على سهيل ، ببروزه في أوائل الليل ، ام هل يسمو الغثاء وان جاء في

(١) لعل صوابه ينثلون وهو اكثر استعمالاً مع السهام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مقاديم السيل ، وما زال الادب قوساً لا تعطى باريها ، وزنداً لا تجد موريها ، حتى تلافى الله ذماء الباقي ، واستنقذ روحه وقد بلغت التراقي ، بيمن الاديب الذي جمع بين نجابة العرق ودماثة الخلق ، في الدوحة من ربيعة عروقه تنتشب ، والى الجرثومة من عبدالقيس اصوله تنتسب ، ترجمان العرب ، قهرمان الادب ، ابي البحر شرف الدين جعفر بن محمد بن حسن بن علي بن ناصر بن عبد ، الامام الشهير بالخطي العبدي احد بني عبد القيس بن شسن بن قصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد ابن عدنان ، فانه المستولي على أقاصيه ، والآخذ باقدامه ونواصيه ، والقائد لطيعه وعاصيه ، والمنتقد لجيده ورديه ، والعارف بصريحه ودعيه ، وهو المفتلذ انامي عيونه ، والمهتصر أفنان فنونه ، ان شبب فالخليُّ شجيٌّ ، وان عزّى فالداني الرحم قصيٌّ ، وان ندب فالقصيُّ الرحم دنيٌّ ، وان ادلى بالمعذرة سل السخيمة ، وامتص الضغائن القديمة ، فسيّان عند تغزله العزهاة والعَزِل ، ومثلان عند اعزائه المقدام والفشِل ، وعلى الجملة فكل ضرب من الشعر مضروب بسكّته ، وكل صنف من النظم مجذوب بسكته ، قرض الشعر وأتّفه مرتّباً له حسب تلاحقه في الاسنان ، فوفق اطراده في العمر ككعوب السنان ، ليعلم الماهر المتوسم ، والناظر المترسم كيف كان تدرجه من الفتاءة الى الكهولة ، ومن ابان الغضاضة الى الفحولة . ختم الله لنا وله بالحسنى ، ورزقنا واياه من حسن العاقبة بالحظ الاسنى اه .

وانما أوردت ترجمة مقدمة الديوان لدلالتها على مرتبة الانشاء وأسلوبه في البحرين في عهد المترجم وهو عهد انحطاط الآداب في العالم العربي . وقد شعر به واضع المقدمة وأبدى رأيه فيه ، ولان هذه الترجمة على الظن الغالب لم تطلق بالطبع من قيد الخط . والا فان ترجمته مذكورة في سلافة العصر من محاسن اهل العصر وفي خلاصة الاثر ونفحة الريحانة الموجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق ولا يستفيد الباحث من هذه التراجم شيئاً جديداً سوى الملل من قراءة السجع الفاتر الذي تملوه في المدرسة الحريرية ، او الوصف الجاف المنطبق على كل موصوف وقد جاء في الخلاصة ان البهاء العاملي قرظ لشاعر الخط قصيدته التي عارض بها رائيته الموسومة بروح الجنان في مدح صاحب الزمان وهي منشورة في الكشكول وغيره ومطلعها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سرى البرق من نجد فهيّج تذكاري عهوداً بحزوى والعذيب وذي قارِ

ولم يرد في الخلاصة ولا غيرها شيءٌ من هذا التقريظ ولذا رأيت مما يحسن ان أنشر منه هذه النبذة : « ايم الله أني كلما سرحت بريد نظري في رياض قصيدتك الغراء ، ورويت رائد فكري من حياض خريدتك العذراء ، زاد بها ولعي وغرامي ، واشتد اليها ولهي وهيامي فكأنما عناها من قال :

قصيدتك الغراء يا فرد دهره تنوب عن الماء الزلال لمن يظما

فترعى متى تروي بدائع لفظها ونظما اذا لم ترو يوماً لها نظما

ولعمري لا اراك الا آخذاً فيها بأزمّة أوابد اللسن ، تقودها حيث أردت ، وتوردها أنى شئت وارتدت ، حتى كأن الالفاظ تتماسد على التسابق الى لسانك ، والمعاني تتغاير على الانثيال على جنانك والسلام » . لم نعثر على سنة ولادة الشاعر واما سنة وفاته فقد ذكرها صاحب السلافة وهي ١٠٢٨ هجرية وافدم قصيدة له في ديوانه في الغزل وهو اول ما يجري الفتى جواده في حلبته نظمها في صباه سنة ٩٩٩ وسائر شعره بعد الالف فتكون مدة نظمه نحواً من ثلاثين عاماً ، واذا قدرنا صباه بما بين الخامسة عشرة والعشرين فيكون عمره بين الخامسة والاربعين والخمسين .

وبما ان فارس منتجع أدباء الشيعة وعلمائها كما كانت فروق مستراد رجال العلم والادب من فريق السنة رحل اليها الشاعر رحلة البهاء العاملي وذلك سنة ١٠١٦ وقطن بها حيناً من الدهر وفيها كانت وفاته كما يظهر من عبارة السلافة : « وكان قد دخل الدار العجمية فقطن منها بفارس ولم يزل بها وهو لرياض الأدب جانٍ وغارس ، حتى اختطفته ايدي المنون » . ولعله توفي في شيراز لانه أرسل منها سنة وفاته ١٠٢٨ قصيدة الى الشيخ احمد بن عبد السلام البحراني ، و يظهر من الديوان ان له ابناً اسمه حسان و كنيته ابو الفرج أرسل لابيه كتاباً صدّره ببيتين من نظمه فسرّ بذلك ابوه السرور كله وأجابه بابيات مشجّعة قائلاً ما معناه ان الهلال يصير بدراً كاملاً ، والخطي المترجم كان كسائر علماء العرب الالباء والمنصفين من إخواننا الشيعة شيعياً بلا رفض لقوله رحمه الله في وصف الحشيشة الخضراء جرياً — كما ذكر صديقه الغنوي — على أسلوب الامراء المنهمكين في تعاطيها والا فان المسموع عنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انه لو حاتٍ لعافها تنزهاً وتركها ابقاءً على الشيمة من ملابسة ما يشين العقل ويقدح في المروءة .

فان قال فيها الناس ما لم يقم به دليل ولم ينهض بصحته خبر
فدعهم فقد قال الخوارج في الفتى عليّ وقد قال الروافض في عمر

(مقياس شعر العرب) — قال الناقد الكبير علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فاصاب، وشبه فقارب وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » . فاذا ما حذونا شعر ابي البحر الخطي على هذا المقياس رأينا انه يحاول تجويده وانه حسنه بشرف المعنى غير خلاّب والشعر لا تصغي اليه الائمة ان كان حسنه وسطاً ولم يبلغ الدرجة العليا كحسن الموسيقي وحسن التصوير وحسن الخطابة وحسن الوجوه ، واما وصفه فقد أحسن بالجملة في بعضه وكان في بعضه الآخر ظالماً لم يدرك شأو الضليع من الشعراء فقد وصف شيراز بوصف عام ينطبق على كل بلدة منعّم اهلها فهو كالمصور الذي لا يصوّر بلدة خاصة بل منظر مدينة او قرية رائعة بشجرها ونهرها فتكون الواحد من جملة التزاويق زينةً للجدران واليك ما قاله بشيرازه :

ان شيراز بلدة لا يكاد الوصف يأتي وان تناهى عليها
ليس تدري سكانها أسرور النفس يأتي من خلفها ام لديها
لو رآها امرؤ وأدخل عدنا سأل الله ان يرد اليها

وممن عاصره من شعراء البحرين المجيدين الشريف العلامة ماجد بن هاشم الحسيني صديق ابي البحر وعشيره فكانا يتجاريان في الشعر فيفضل هذا صاحبه مرة وهذا مرة فما شأى ابو البحر به الشريف وصف البدر اذ كان سامراً عنده وطلع البدر فقال ابو البحر بديهةً :

خذه اليك كصفحة المرآة بدراً يكشف حالك الظلمات

فأجازه الشريف قائلاً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكأنه وجه المليحة حسّرت عنه ذوائب فرعها الفحمات
وكأنه والشهب محدقة به ملك اطاف به الجنود ثبات

فقال ابو البحر :

وكأنه الديار بثت حوله بيض الدراهم غير مجتمعات
وكأنه والنقص يأخذ بعضه قرص اللجين مثلّم الجنبات
وكأنه والمحو في أرجائه وجه الفتاة مجدّر الصفحات

فان ابا البحر يكاد بهذا الوصف المصور يضع البدر امام عينيك ، فتهم ان تلمسه بيديك ، ولم يلحق ابو البحر الشريف في وصف امرأة جميلة تتلو القرآن قال الشريف :

من عذيري من غادة فتنتني وهي تتلو جزءًا من القرآن
بلسان يدعو الى طاعة الله ووجه يدعو الى الشيطان

وكأن ابا البحر عجز هنا عن مجاراته في هذا المعنى فقال لصاحبه وهو يجاريه دعنا نقصر ذلك على الصوت الحجة ومعنى وقال :

وقاريء يوقر الاسماع منطقه اذا تلا جرّع اللذات والغصصا
اذا أطاع لمعنى ما يفوه به قلب ، أهاب به ألحانه فعصى

فأجازه الشريف منشداً :

وتال لآي الذكر قد وقفت بنا قراءته بين الضلالة والرشد
بلفظ يسوق المتقين الى الجنا ومعنى يسوق الفاسقين الى الزهد

والغنوي الذي مر ذكره من أدباء البحرين في هذا العصر المولعين بشعر ابي البحر و يكاد يكون راو يته اتصلت به هذه المجاراة فقال يجاريهما ببيتين يدلان على منزلته في الادب ومرتبته في نظم الشعر وهما :

وقار يحط العصم من شعفاتها يزيد على حسن التلاوة حسنه
نقسم قلبي حين غرد تاليًا فللرشد معناه وللغيّ لحنه

وسلك ابو البحر في كثير من أبيات وصفه سبيل التشابيه المألوفة في عهد انحطاط البيان والمستبشعة بتصورها كقوله في وصف وزير البحرين :

اسد الفتك ، اجدل الخطف ذئب الـ ـمكر فهد الوثوب كبش النطاح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبه يخال الانسان ان الوزير جنينة حيوان ، ومنه قوله :

كأنما قده قضيب وسود ألحاظه قواضب
تفعل أصداغه بقلبي أضعاف ما تفعل العقارب

ولكثرة ما يذكر أمثال هؤلاء الشعراء من سهام الاهداب وقسيّ الحواجب والرماح والقواضب وسائر آلات العذاب الواصب اراد ان يصوّر احد ادباء الفرنجة الشعر العربي فما رأى أصدق من تصوير مسلحة جامعة لانواع الاسلحة القديمة ومن منا لايذهب الى ان من المصائب ، ما تفعله بعجز البيت الاخير هذه العقارب .

وقد أجاد في حائيته المشهورة وصف الراح ولو اراد مقطّراً كالعرق لطبّق المفصل لانطباق هذا الوصف على الكحل — الكحول — وهو :

مزجوها فقيدوها فلو تتـ ـرك صرفاً طارت بغير جناح

وقارب الاجادة في وصف دولاب القميعيات وفي الكلاب وراء الارانب والسمكة الطائرة من البحر التي شقت وجنته اليمنى الى غير ذلك مما يطيل نفس القول استقصاؤه .

(الباقي للاتي)

ابو قيس
عزالدين التنوخي
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
والمجمع العلمي العربي ببغداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net